من آيات الله

خلق السموات والأرض وما يبث فيهما من دابة

قال تعالى فى سورة الشورى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ**﴾ [الشورى: ٢٩].

ويذكر العلماء الباحثون: أن المقصود بالسماء: هو كل ما علا الناس، أو ارتفع فوق رؤسهم من سائر أجرام القضاء التى تنتشر فى هذا الكون بأسره مثل النجوم، والشموس، والكواكب، والمذنبات، والأقمار وغيرها.. وهى كلها تجرى فى مساراتها، وتدور فى أفلاكها، وهذه السماء كما يعرف العلم هى المظهر المادى لهذا الوجود.

ولكن السموات المسكونة هى كواكب دبت عليها الحياة، لتوفر الظروف الملائمة عليها، ولا يلزم أن تكون كل الكائنات من نفس جسم الإنسان.

ويقول علماء التفسير: أن من آيات الله الدالة على عظمته، وقدرته العظيمة، وسلطانه القاهر: خلق السموات والأرض مع عظمهما وما بث فيهما من دابة وما ذرأ وفرق فى السموات والأرض من دابة..

ولا مانع لدى العلماء من أن يكون قوله تعالى: ﴿**وما بث فيهما من دابة**﴾ إشارة إلى وجود حياة على كواكب أخرى غير الأرض، وقد يكون المراد غير ذلك.

وإذا كانت الآية: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة**﴾. تشير إلى وجود ما يدب فى السموات وفى الأرض، فإن هناك آيات أخرى أيضاً. قال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿**قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأنبياء: ٤]. وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [النحل: ٤٩].

وآية سورة النحل من أوضح الآيات التى تفرق بين الملائكة وما فى السموات من مخلوقات تدب هى سكان الكواكب أو سكان السموات.

وجدير بالذكر على أية حال، بعد أن لمس العلماء اتساع هذا الوجود، يكون من العبث بل من الحماقة، أن نقصر ملكوت الله من الكائنات الحية المفكرة التى فيه على البشر سكان الأرض، وليس لهذا القصر من دليل سوى أنه لم تتح للإنسان فرصة زيارة السموات أو الاتصال الفعلى بسكانها.

وآية: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة**﴾ معروضة على الأنظار، قائمة تشهد بذاتها على ما جاء الوحى ليشهد به، وآية السموات والأرض لا تحتمل جدلاً ولا ريبة.

فهى قاطعة فى دلالتها، تخاطب الفطرة بلغتها، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد، إنها تشهد بأن الذى أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ولا غيره من خلق الله.

ولا مفر من الإعتراف بمشئٍ مدبر، فإن ضخامتها الهائلة، وتناسقها الدقيق، ونظامها الدائب، ووحدة نواميسها الثابتة، كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ويدبرها، أما الفطرة فهى تتلقى منطق هذا الكون تلقياً مباشراً، وتدركه، وتطمئن إليه، قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها.

قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقال تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ [إبراهيم: ١٩].

وقال تعالى فى سورة الحجر: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النحل: ٣].

وقال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٤٤].

وتنطوى آية السموات والأرض على آية أخرى فى ثناياها ﴿**وما بث فيهما من دابة**﴾.

والحياة فى هذه الأرض أية أخرى، وهى سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد، فضلاً عن التطلع إلى إنشائه.

الحياة فى الأرض سر غامض لايدرى أحد من أين جاء، ولا كيف جاء، ولا كيف يتلبس بالأحياء.

هذه الأحياء المبثوثة فى كل مكان، فوق سطح الأرض وفى ثناياها، وفى أعماق البحر، وفى أجواز الفضاء - ودع عنك تصور الأحياء الأخرى فى السماء - هذه الأحياء المبثوثة التى لا يعلم البشر منها إلا النزر اليسير، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور.

هذه الأحياء التى تدب فى السموات والأرض يجمعها الله حين يشاء، لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب، وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سرباً من الطير الأليف ينفلت من أقفاصهم، أو أسراباً من النحل يطير من خلية لهم.

وأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله، وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله، وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم موطنها إلا الله وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله، وقطعان من الأنعام والوحوش هائمة وشاردة فى كل مكان، وقطعان من البشر مبثوثة فى الأرض فى كل مكان، ومعها خلائق أربى عدداً، وأخفى مكاناً فى السموات من خلق الله، كلها كلها يجمعها الله حين يشاء.

فالله سبحانه قادر على جمع هذه المخلوقات المنتشرة فى عوالم الوجود فى السموات وفى الأرض، ثم إذا شاء سبحانه جمعهم من أقطار السموات والأرض وهم أحياء، ثم بعد أن يموتوا ويبعثوا قال تعالى: ﴿**وهو على جمعهم إذا يشاء قدير**﴾ أى على جمع دواب الأرض والسماء.

فإن كان المراد فى الآية الإشارة إلى دواب فى كواكب أخرى، فالآية إذن تشير إلى إمكانية جمع بعضهم ببعض. ويقول الزمخشرى فى تفسيره: «ولا يبعد أن يخلق فى السموات حيواناً، يمشى فيها مشى الأناسىّ على الأرض. سبحان الذى خلق ما نعلم وما لانعلم من أصناف الخلق»..

وإن لم يكن الأمر كذلك فالآية تتحدث عن قدرته عز وجل على جمعهم يوم القيامة. قال ابن كثير: أى يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين، وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمة العدل الحق.

* * *